الحياة

(تابع لما في الجزء الاول)

هذا مُجمَل ما تحصّل لهم بعد الامعان في البحث الى آخر ما أوصلتهم اليهِ ذرائع العلم الحالي وكلهُ كما ترى لا يتعدى خصائص الحوصلة المفردة وهي أبسط المميّزات التي يُفرَق بها بين الجسم العضوي وغير العضوي

وهناك بحثٌ آخر في حقيقة الافعال الحَيَويّة وهل هي من نوع الافعال الطبيعية او الكيماوية المتصرفة في الموادّ العنصرية او هي أفعالٌ أُخر خاصّة بالاجسام العضوية . فذهب فريقٌ منهم الى ان القوى التي تصدر عنها الافعال الحيوية لا تختلف عن القوى العاملة في المادّة وان الحياة ليست الاَّ نتيجة تفاعلٍ كيماوي بين العناصر المؤلفة منها الاجسام الحية وانها اول ما ظهرت في مركَّبٍ خاص من الكربون والاكسيجين والازوت وهي الموادّ التي نشأت من تألّفها البروتوپلاسما الاولى ثم نمت بالإرث والتحوُّل . وذهب غيرهم الى ان الحياة ليست في شيء من النواميس المعروفة في المادّة انما هي قوةٌ خاصّة بالكائنات الآليّة تختلف مفاعيلها تبعاً لما توجد فيهِ من الانسجة والاعضاء فتنشأ عنها الحركة في العَضَل والحِسّ في العَصَب وافراز الصفراء في الكبد وتحويل الاغذية في المسالك الهضمية الى مادّةٍ حيّة وهلمَّ جرًّا . وقد كان لهم في هذا المعنى مباحث طويلة ومناقشاتٌ دقيقة دفعت اصحاب المذهب الاول الى مزاولة كل غريبٍ من الامتحانات حتى وصلوا بعد تكرار التجارب والامعان في تحليل

الاجسام الآليّة وفحصها الى تركيب عدة موادّ نباتية وحيوانية فجاءت كالتي تركّبها الطبيعة الاّ انهم وقفوا عند هذا الحدّ فلم يتجاوزوهُ . ولا يخفى ان تركيب المادّة التي هي محلّ الحياة شيء وايجاد الحياة العاملة في تلك المادّة شيءٌ آخر وبعبارةٍ أخرى لا يمكن ان يقاس بين صنع مادّةٍ يشبه تركيبها تركيب شيء من الانسجة النباتية او الحيوانية وصنع حويصلةٍ حيّة تصدر عنها افعال ذوات الحياة من التمثيل والافراز وغيرهما مما تقدم ذكرهُ . وقد افرغوا جهدهم في البحث عن مادّةٍ تتوسط بين الاجسام الحيّة وغير الحيّة كما وُجد بين الحيوان والنبات اي ان يجدوا مادّةً تتوسط بين الهُلام مثلاً والحُوَيصلة الحيّة فلم يعثروا على شيء من ذلك بل جاء الامر على عكس ما كانوا يؤملون لانهم كانوا كلما تعمقوا في المباحث الحيوية ازداد سرّ الحياة غموضاً وبَعُدَ الشبه بينها وبين سائر القوى العاملة في الموادّ العنصرية . والظاهر أن وجود هذا الوسط مما لا مطمع فيهِ بل المذهب الغالب اليوم بين علماء الطبيعة ان الحياة بمعزل تام عن النواميس الطبيعية والكيماوية ولها مصدر غير مصادر تلك ونواميس بحالها

اذا ثبت ذلك بقي أن يُبحَث عن مصدر الحياة وكيفية اتصالها بالمادّة وهي المعضلة الكبرى التي عجزوا عن حلها على وجهٍ تجيزهُ المبادئ العلمية . وذلك ان جميع علماء الهيئة وعلماء طبقات الارض متفقون على ان الارض كانت في أول امرها جُذوةً سائلةً وغازاً مشتعلاً وكانت قبل ذلك سديماً منتشراً في الفضاء فكانت في الحالين غير صالحة للحياة ولذلك عدلوا فيها الى مفروضاتٍ بعيدة الاحتمال ولو بالقياس الى مبلغ العلم الحالي . فزعم بعضهم

ان الحياة وُجدَت منذ البدء حتى في السائلات الملتهبة والغازات المنتشرة في السديم الاول وانها كانت على شكل يخالف شكلها المعروف اليوم ثم تبدلت مظاهرها شيئاً فشيئاً تبعاً لاقتضآء البيئة وفي هذا القول من البعد ما لا يخفى . وزعم آخرون ان جرثومة الحياة هبطت الى الارض مع النيازك اي الحجارة المنقضَّة من الفضآء يذهبون بذلك الى احد الاقوال في اصل النيازك وانها آتية من جرم من الاجرام السماوية انفجر بسببٍ من الاسباب فتناثرت قِطَعهُ في الفضآء وحملت معها جراثيم الحياة . ومهما يكن في هذا القول فلا أقلّ من انهُ يتضمن فرض وجود الحياة في أحد الاجرام قبل وجودها في الارض فبقيت المسئلة في موضعها من الغموض والجهل . وذهب جماعةٌ الى ان التولد الذاتي الذي يُعَدّ اليوم من المستحيلات قدكان ممكناً في الزمن الاول وقد وافقتهُ احوالٌ هي معدومة اليوم وايسر ما في هذا الزعم انه قولٌ لا دليل عليهِ . على أن من العلمآء من لم ينقطع عن البحث فيهِ ومراقبة ما يلد الاتفاق من غرائب الحوادث وما يمرّ في اثنآء التجارب العديدة التي يزاولونها في هذا السبيل وغيرهِ رجآء أن يبدو لهم ولو شعاعٌ ضعيف يتخذونهُ مبدأً للوصول الى اثباتهِ . وقد نشرنا في الجزء التاسع عشر من مجلد السنة الماضية (ص ٥٩٣) ماكان من الاكتشاف الذي سنح للمستر بُورْك مما ان صحّ على الوجه الذي نقلوهُ ثبتت منهُ صحة التولد الذاتي بلا ريب وعُرِف من سرّ الحياة ما طالما خبط فيهِ العلمآء والفلاسفة من أول الدهر

وقد جآء في بعض المجلات الانكليزية زيادةً على ما نقلناهُ هناك

ان المكتشف المذكور نقل بعضاً من الجراثيم التي يقول انها تولدت بواسطة الراديوم فوضعها في سائل آخر عقّمهُ وتركهُ خالياً من الراديوم فنمت فيهِ ايضاً وانقسمت كما كان منها في المرة الاولى فثبت لهُ ان الراديوم كان وسيلةً لتولُّد الحياة فيها وانها بعد ذلك تستمرّ حيّةً بدونهِ

وقرأنا في احدى الجرائد الفرنسوية نبأ اكتشافٍ آخر من قبيل اكتشاف المستر بُورك وهو ان المسيو إيڤ دُلاج توصل في مُختبَرهِ في رُوسكُوف الى تلقيح بيض السمك المعروف بالكوكب (astérie) بواسطة الحامض الكربونيك . ولا يخفى أن تولُّد السمك من البيض على هذا الوجه لا يُفرَق عن تولُّد الجراثيم الحيّة من الجلاتين بل هو اغرب من ذاك لان المتولّد منهُ حيوان ذو أعضآء وأجهزة مختلفة لا حُوَيصلة مفردة كالذي رُوِي عن اكتشاف بُورك

هذا ما ذكروهُ من نبأ هذين الاكتشافين الغريبين نرويهِ على وجههِ ونحن لا نقطع بصحة شيء منهما لجواز أن يكون ثمة ما لم يتنبه لهُ المكتشفان . على أن المسئلة الآن قد اصبحت محلاً لفحص مئاتٍ من جهابذة العلمآء في أوربا واميركا ولعلهُ لا يأتي الاّ زمن قصير حتى يَبُتّ احد وجهيها بما يقطع الريب

من كلام بعض الحكمآء الحذر من الكريم اذا اهنتهُ واللئيم اذا اكرمتهُ والعاقل اذا احرجتهُ والاحمق اذا مازحتهُ والفاجر اذا عاشرتهُ

خطب كالبريا
والزلازل في العالم

ماذا عسى ان يبلغ هذا القلم من وصف ذلك الخطب الهائل والذين سمعوا بآذانهم ورأوا بعيونهم اعترفوا بالعجز عن وصفهِ ولكن حَسْب المطالع ان يتصور الوفاً عديدة من المنازل قد تهدمت جدرانها او تزعزعت اركانها فلا تصلح لمأوى ولا تليق لملجأ ويتصور نحواً من الفي قتيلٍ وجريح سقطوا ولا مسعف ولا معين فقضى اكثر الجرحى لقلة العناية والحاجة الى العلاج واكثر من مئتي الف نفس غطآؤهم الهوآء وسقفهم السمآء وفراشهم الغبرآء وبطونهم مطويّة على الطوَى وصدورهم تلتعج بنيران الحزن على اثر ذلك الخطب الجلل وبين هؤلآء الخلائق المنكوبة عجائز وشيوخ واطفال يدمي منظرهم الفؤاد ويحرك قلب الجماد . واني اكتب الآن للضيآء وكانما عيني ترى أولئك المساكين باكين ضارعين الى ولاة الامور او ملتفّين حول ملكهم الغيور حين خاطر بنفسهِ وزار البلاد المنكوبة ليسمع باذنهِ ويرى بعينهِ وقد امتلأ الكيرينال (وهو مقام الملك بايطاليا) من تلغرافات الملوك وارباب التيجان ورؤسآء الحكومات وانهالت العطايا من انحآء اوربا واميركا وآسيا وافريقيا على أولئك البائسين ولكنها لم تخفف الا بعض المصائب . ولم تبرح الحكومة الايطاليـة حتى الساعة تهتمّ بتشييد المنازل وتجديد المعاهد وتقديم ما تجد اليهِ سبيلاً من العون والاسعاف لعلها تلطف من الويل وتخفف من الشقآء المخيّم

وقد قرأت في احدى المجلات العلمية فصلاً لبعض مكاتبيها شرح فيهِ بعض تفاصيل ذلك الزلزال فرأيت ان اعرّبهُ ليقف عليهِ قرآء الضيآء قال

حدث في ايطاليا زلزالٌ عنيف نادر الشدّة دمّر الولايات الجنوبية منها وقد تكرر دفعاتٍ عديدة توالت من ٨ شهر ستمبر الى آخرهِ . وكانت اول رجفةٍ في اليوم المذكور بعد نصف الليل بساعتين و ٤٢ دقيقة واستمرت ١٣ دقيقة فدمّرت كل شيءٍ على مسافة ١٠٠ كيلومتر طولاً فيما يزيد على ٢٠ كيلومتراً عرضاً وقد انشقّت الارض في بعض الاماكن وخسفت قرًى بكمالها فلم يبن لها أثر وكان القتلى مئاتٍ كثيرة والجرحى ألوفاً . وليعلم المطالع مقدار البلآء الذي نزل بهذه الناحية نقول انهُ في الرجفة الاولى وُجد عدد الموتى على ما قدّروا ٥٠٠ نفس والجرحى ٢٥٠٠ على ان هذا ينبغي ان يكون دون الحقيقة بكثير لان قرية مرتيرانو واهلها لا يزيدون على ٣٠٠٠ نفس سقط منهم في تلك الرجفة ٢٢٠٠ نفس بين قتلى وجرحى

أما المنازل التي كانت على الشاطئ فخرب معظمها بقوة اندفاع الامواج وقد غمرتها المياه بجملتها وتخرّب كثير من خطوط السكك الحديدية . وشعر الناس بالرجفة من جهة الشمال الى سالرنا وما يليها شرقاً وغرباً ومن جهة الجنوب في جميع الشواطئ الشرقية من صِقلّية وحدث زلزالٌ في مسّينا تقوّض بهِ كثيرٌ من الابنية وهاج بركان استرومبولي ويزوف فأرسل الاول سيولاً من الموادّ المصهورة وقذف كثيراً من الصخور والرماد وسقط في تيريولو مطرٌ من الغبار

واستمرّت الزلازل تتردد في اكثر الايام فخربت بها بلادٌ كثيرة

وذهب عدد كبير من النفوس وكانت مضارّ الزلزال في نابُلي اعظم مما كان يقدَّر بكثير فقد كُتب منها في ٢٩ ستمبر ان عدد المنازل التي تقوضت أو اصبحت غير صالحةٍ للسكنى بلغ عشرة آلاف منزل ولبث ما يزيد على خمسين الف نفس بلا مأوى

على ان كالبريا ما زالت عُرضةً لهذه الحوادث تتكرر فيها الحين بعد الحين وهذا مما يدل على ان الموضع الذي يحدث فيهِ الزلزال مرةً لا يأمن مراجعتهُ ولو بعد زمن بعيد. فقد ذكر انهُ حدث فيها زلزال سنة ٥٢٦ هلك بهِ ما بين مئة وعشرين ومئتي الف نفس . وفي سنة ١٧٨٣ دُمّرت اوپيدو وترّانوڤا وقُتل فيهما ستون الف نفس وكانت المنازل تتطاير في الجوّ كما تتطاير الحجارة بنسف الديناميت . وفي پولستينا هلك اكثر السكان تحت الانقاض وقد شوهدت اخاديد في الارض لا يقل طولها عن ٥٠٠ متر في عرض ١٥٠ متراً وعمقها بضعة أمتار . ثم انهُ في سنة ١٨٨٦و١٨٨٧ عاودت الزلازل هذه الناحية ثم راجعتها سنة ١٨٩٤ الاّ انها كانت خفيفة هلك بها ٩٤ نفساً وجُرح ٨٠٠ . اهـ

على ان ما أصاب ايطاليا من الزلازل المذكورة ليس بأشدّ ما رُوِي من مثلهِ في الازمان التاريخية فان الكرة ما برحت عُرضةً للزلازل منذ وُجِدت وما يحدث في أيامنا هذه ليس الاَّ بقايا من تلك الانقلابات السالفة وليس ما نراهُ من جبال ووهاد وسهول وانجاد الاّ من آثار الزلازل الاولى . واذا نظرنا الى الربع الاخير فقط من القرن الماضي رأينا ما هو اعظم مما حلّ بكالبريا . فمن ذلك زلزال حدث في جاوا سنة ١٨٨٣ فاهلك

ثمانين الف نفس . وزلزال في الاندلس وقع سنة ١٨٨٤ فاسفر عن ألوف من القتلى والجرحى. وزلزال في اليابان حدث سنة ١٨٨٧ ولم يستمرّ سوى دقيقة واحدة فأمات سبعة آلاف وهشّم مئة الف نفس وحدثت بعده زلزلة بحرية سنة ١٨٩٨ هلك بها ثلاثون الف نفس . وحسبك من ذلك ما حدث من نحو اربع سنوات في المرتينيك[١] مما لا يزال ذكرهُ الى الآن يدمي القلوب ويُرعد الفرائص

وقد لاحظ علماء الجيولوجيا ان الزلازل تبدأ اولاً باهتزاز ارضي خفيف فلا يكاد الانسان يشعر بحركة الارض مع انها تهتز وترتجف ثم تحدث سكينة في غالب الاحيان يتلوها الزلزال وقد تحدث زلازل فجائية على غير هذا الوجه . وتقسم الهزات الارضية الى ثلاثة أقسام قسم يكون من الادنى الى الاعلى وقسم يكون أُفقيًّا مع صدمة جانبيـة وقسم يكون متماوجاً تماوج البحر كما حدث في بعض هزات كالبريا . أما أوقات الزلازل فقد كانت متباينة كل التباين في الطول والقصر فنها ما حدث في بعض ثوانٍ كانت كافية لتخريب البلاد وقلب الارض كما جرى في جزيرة ايشيا بالقرب من نابلي سنة ١٨٨٣ ومنها ما بقي أياماً وشهوراً كما وقع في فيّيج سنة ١٨٥٥ فان اضطراب الارض بقي متوالياً الى سنة ١٨٥٧ وحدث ٢٠٠٠ هزة في شهر مارس وحدهُ في جزُر صندويج سنة ١٨٦٨ . وحدث سنة ١٨٩١ في جيفو من بلاد اليابان ١٣٦٠ زلزلة وفيها ما كان بالغاً منتهى الشدة وذلك من ٢٨ اكتوبر الى ١٠ نوفمبر اي في اثني عشر يوماً لا غير

(١) راجع مجلد السنة الرابعة من الضياء ص ٥٥٦

اما اسباب الزلازل فقد مضى زمن طويل وجماعةٌ من الباحثين يعزونها الى وجود البراكين ويعتقدون انها لا تحدث الا في الجهات البركانية ولكن هذا المذهب مع كونهِ لا يخلو من الصحة لان البلاد البركانية اكثر تعرُّضاً للزلازل من سواها فان هناك جهاتٍ قرر العلمآء انها بعيدة عن المواقع البركانية كجبال الالب مثلاً فان الهزات تحدث فيها متوالية وسبب الاضطراب لا يُعرَف على وجه جليّ لكن الراجح عند العلمآء انهُ سقوط ركام كبير من الصخور الداخلية او انفجار يحدث في قلب الارض بسبب تراكم البخار الناجم عن تسرُّب المياه او التقلص الطبيعي المتوالي في قشرة الكرة الارضية ٠ اما زلازل كالبريا فالارجح ان سببها تسرُّب مياه البحر الى قلب الارض بحيث نشأ عنها عند ملاقاتها لحرارة النار الداخلية بخارٌ عظيم احدث ضغطاً شديداً هائلاً في قلب الارض فزُلزلت زلزالها وصبّت على الخلق اهوالها

***

واختم هذا الفصل بايراد قصيدة عامرة الابيات لحضرة صديقي الشاعر الشهير حافظ افندي ابراهيم ضمّنها الاعتذار عن الارض عند وقوع مثل هذا الحادث وقد اطلعني عليها وانا اكتب سطوري هذه قال

أَلبسوكِ الدمآءَ فوقَ الدماءِ ۝ وأَرَوْكِ العداءَ بعد العداءِ

ولبستِ النجيع من عهد قابيـ ۝ ـل وشاهدتِ مصرع الابريآءِ

فلكِ العذر ان قسوتِ وان خنتِ ۝ وان كنتِ مصدراً للشقآءِ

غلط الناس ما طغى جبلُ النا ۝ رِ بارسال نفثةٍ في الهوآءِ

احرجوا صدر امهِ فاراهم بعض ما اضمرت من البُرَحاءِ
اسخطوها فصابرتهم زماناً ثم انحت عليهمِ بالجزآءِ
ايها الناس ان يكن ذاك سخط الـ أرض ماذا يكون سخط السمآءِ
ان في علوَ مسرحاً للمقادير م وفي الارض مكمناً للقضآءِ
فاتَّقوا الارضَ والسمآءَ سوآءً واتَّقوا النار في الثرى والفضآءِ
فانظروا ما دهى بني الغرب في الغر بِ وماذا أصابهم من بلآءِ
جاوروا النارَ واطمأنُّوا اليها كجوار الحُواة للرَقطآءِ

يوسف البستاني

حق تملك الاجانب للاراضي العثمانية

كان من نظام الدولة العثمانية الى اواسط القرن الماضي ان تمنع الاجانب من حق التملك في اراضيها مع انهُ كان مباحاً لهم حق الاقامة والاتجار في جميع الممالك العثمانية ما خلا الحجاز وكانوا متمتعين زيادةً على ذلك بمميزات كثيرة عن العثمانيين كاعفآئهم من تكاليف مختلفة مضروبة على الوطنيين

ولحرمان الاجانب حق الملك العقاري في ديار الاسلام سببٌ قديم نشأ دينيًّا ونما سياسيًّا وحفظ قوتهُ قروناً عديدة الى ان قضت الضرورة باباحة ذلك المحظور وتغيرت الاحكام بتغير الازمان

ذلك السبب هو الشريعة الاسلامية الغرآء التي تكفلت بنظامي الدين والدنيا او العبادة والمعاملة فان من قواعدها الاساسية الجهاد وهو دعوة

الناس كافةً الى الاسلام فإمّا قبول الدعوة والدخول في الاسلام واما أدآء الجزية والدخول في ذمة المسلمين والاّ فالقتال . ولهذا كان يُعتبَر بمقتضى الشرع الاسلامي غير المسلم وغير الذمي حربيّاً اي انهُ تجب محاربتهُ الى ان يقبل أحد الامرين الاولين او يكون السيف بينهُ و بين المسلم فصل الخطاب ومن ثمَّ قُسمت الارض المعمورة في نظر المسلم الى قسمين دار اسلام ودار حرب

لذلك لم يكن يباح لاحد من الاجانب دخول الديار الاسلامية الاّ باذن الحاكم ولم يكن يجوز لهُ الاقامة فيها الاّ اذا حصل على الامان لكن لا يباح لهُ ان يقيم الاّ الى اجلٍ اطولهُ سنة فاذا أتى عليهِ ذلك الاجل سوآءٌ كان سنةً أو اقلّ صار ذمياً وأُلزِم أدآءَ الجزية واذا تملك ارضاً عُدّ ذمياً بمجرد تملكها فأدّى الخراج عنها ومُنع في الحالين من الخروج من ديار الاسلام ومثل هذا يسمى مستأمناً

ولما ضخم ملك الاسلام بالفتح وقضت الاحوال بالتوقف عن الاستمرار فيهِ والانقطاع عن الجهاد وكانت ضرورات العمران تقضي بتبادل المعاملة بين شعوب الارض جعلت دول أوربا تسعى في نيل الاذن لرعاياها من الدول الاسلامية بالتردد الى بلادها والاتجار فيها . واذ كانت الممالك الاسلامية محتاجة الى البضائع الاجنبية ولها بتردد الاجنبي عليها فائدة وكان الشرع لا يمنع ذلك التردد منعاً مطلقاً بل يجيزهُ تحت قيود شرعية معلومة أباحت الدول الاسلامية لرعايا الدول الاجنبية الدخول الى ديار الاسلام والاتجار فيها تحت شروط وتكاليف معينة . وقد كانت هذه

الاباحة بصكوك مكتوبة هي اصل المعاهدات الاّ انها مُنحت في ذلك الوقت بصورة انعام من الدول الاسلامية على رعايا الاجانب وان كانت في الواقع ليست الاّ تبادل منافع بين الفريقين

ويبتدئ تأريخ هذه المعاهدات على الصحيح من عهد الفاطميين في مصر وقد حذت حذوهم الدول التي خلفتهم في هذه الديار ودول اسبانيا وافريقيا الاسلامية . ولما تأسست الدولة العثمانية سارت مع دول اوربا على النمط الذي كان موجوداً وقتئذٍ بمعنى انها لم تُحدث في جوهر هذه المعاهدات شيئاً جديداً بل كانت تؤيد القديم المعروف وتمنح مثلهُ اللهمَّ ما خلا بعض تعديل وتنظيم تقتضيهِ الاحوال

واذا راجعنا تلك المعاهدات جميعها من اوائل عهدها الى ان توسعت وتنظمت في عهد الدولة العثمانية وصارت مشتملاتها حقوقاً سياسية متبادلة يطالب بتنفيذها وكلآء الدول الاجنبية المقيمون في عاصمتها وعواصم ولاياتها لا نجد فيها حق التملك العقاري مباحاً . ولا بأس ان نذكر هنا اهم ما تضمنتهُ تلك المعاهدات توفيةً للفائدة

فمنها انها تبيح للاجانب الملاحة في بحار الممالك الاسلامية وارسآء سفنهم في موانيها ودخولهم الى الثغور واقامتهم في البلاد مع البقآء على عوائدهم والقيام بشعائر عباداتهم فيها . ومنها الاذن لهم ان يتقاضوا مدنيًّا وجنآئياً في منازعاتهم الخصوصية لدى وكلآء دولهم فان كانت مع الوطنيين كان الاختصاص القضآئي للمحاكم المحلية بشرط ان يحضر ترجمان القنصل النظر في الدعوى . ومنها انهُ يجوز لهم ان يوصوا في اموالهم

كما يشآءون ويسلموا تركاتهم الى وكلآء دولهم لتتصرف في مسائل الارث حسب قوانين بلادهم . وزد على ذلك حرمة منازلهم ومنعتها حتى على الحكام المحليين فلا يستطيعون دخولها قبل اخبار السفير او القنصل كما انهم يُعفَون من كل مصادرة او مكس ما خلا المتفق عليهِ معهم . الى غير ذلك من الامتيازات التي لم يحصل عليها العثمانيون انفسهم الا حق التملك العقاري فقد كان محظوراً عليهم الى سنة ١٨٦٧ ميلادية اذ كانوا يضطرّون قبل ذلك اذا ارادوا ابتياع عقار ان يكتبوا حجة بيعهِ باسم شخص عثماني يتخذون اسمهُ على سبيل العاريّة ويستخدمون العقار لمنفعتهم بحجة استئجارهِ من المشتري وتلك حيلة او مسوّغ شرعي اختاروهُ لهذا الغرض

والسبب فيما ارى لبقآء هذا الحق محظوراً على الاجانب دون بقية الحقوق طول هذا الزمان امران احدهما من حيث الدين وهو كون الشرع يمنع تملك اجنبيٍّ عقاراً دون ان يفقد حق اجنبيتهِ اي خضوعهِ السياسي لحكم دولة اجنبية لما يلزمهُ بسبب هذا التملك من القيام بالتكاليف العثمانية اذ يمتنع عليهِ بعدهُ الخروج من بلاد الدولة بحيث يصير كاحد رعاياها بلا فرق . والثاني من حيث السياسة وهو اضعاف نفوذ الاجانب في الديار العثمانية وتقليل تداخل الدول الاجنبية في شؤونها لما هو معلوم من ان تملك الاراضي في بلاد يجعل لاصحابها النفوذ الاول فيها من الوجهين المالي والاداري

على ان الدولة العثمانية كانت تعلم بتملك الاجانب بتلك الحيل والمسوغات وان كان الظاهر في المعاملة الرسمية غير ذلك ولا يخفى ما ينجم عن مثل

هذا التصرف المبان للواقع من المشكلات والمنازعات فرأت الدولة اخيراً لاجل حسم هذه المشاكل من جهة واجابةً لرغبة الدول الاجنبية من جهة اخرى ان تكفي نفسها مؤونة تلك المنازعات وتفتح ذلك البـاب المغلق فصدر خط همايوني بتـاريخ ٧ صفر سنة ١٢٨٤ (١٠ يونيو سنة ١٨٦٧) سنورد ترجمتهُ في هذا الموضع ومن ذاك الحين تساوى حق الاجنبي وحق العثماني في الامتلاك العقاري في الممالك العثمانية . وهذه ترجمة الخط الهمايوني بعد المقدمة   (ستأتي البقية)   ابرهيم الجمّال

الحامض النمليك

وتقوية العضل

نلخّص هذا الفصل عن مقالةٍ لاحد اكابر اطبآء الفرنسيس نشرها في احدى المجلات العلمية   قال

ما زال اطبآؤنا في هذا العصر يسخرون من الاطبآء الاقدمين ثم لا يلبثون ان يعودوا الى تفقد ما كانوا يصنعونهُ من ضروب الادوية فيفحصون سرّهُ للوقوف على ما فيهِ المنافع . فمن ذلك نوعٌ من المركّبات السرّية كان مشهوراً بمنافعهِ العديدة حتى كنت لا تجد صيدليةً في القرن الماضي تخلو منهُ وهو المعروف باكسير هُوفان . ومن خصائص هذا الاكسير ان يشفي جميع الامراض والآلام ولهُ فعلٌ عجيب في الرياح السوداوية واضطرابات المعدة وكان يُصنَع من نقيع النمل في روح الخمر وذلك على ما ورد في بعض التعاليق ان يؤخذ مقدار حفنتين من النمل

ويُجعَل في لتر من روح الخمر ويُترَك في انآءٍ محكم السدّ الى ان ينحلّ النمل ويصير مائعاً وبعد ذلك يقطّر بواسطة حمّام ماريّا ويطيّب بشيءٍ من الدار صيني

وقد اشتغل الدكتور كليمان من اطبآء ليون بامر هذا الاكسير وما يُحكى عنهُ من عجيب النفع فهدتهُ فكرتهُ الى ان فائدتهُ لا بد ان تكون ناشئة عما يتضمنهُ من الحامض التمليك واذ ذاك عمد الى الحامض المذكور فاخذ منهُ نحو عشر نُقَط في شيء من المآء القلوي وكرر ذلك الى اربع مرات في اليوم فشعر من استعمالهِ بمفعولٍ عجيب

واول ما شعر بهِ منهُ التنبُّه في الجهاز العَضَلي بحيث وجد سهولةً في المشي وصعود الجبال والسباحة والمثاقفة بالسلاح ولم يشعر في ذلك كلهِ بتعب فثبت لهُ انهُ يزيد في النشاط وقوّة العضل . وقد تبين لهُ ان هذه القوة ليست من قبيل ضعف المقاومة في الاشيآء التي كان يزاولها ولكنها قوّةٌ ثابتة في جسمهِ تحققها بواسطة الدينامومتر وهو آلةٌ تُختبَر بها قوة العضل . ثم امتحن ذلك في عدة اشخاص فوجد ان الشخص الذي كان معظم قوّتهِ ان يبلّغ ابرة الدينامومتر الى ٤٠ او ٥٠ درجة توصل بعد ايامٍ قلائل ان يبلّغها الى ٥٦ و٥٨ درجة واحياناً الى ٦٠ . ووجد مثل ذلك في معالجة المصابين بالامراض الضعفية فانهم استفادوا على مثل النسبة المذكورة اي ان قوى عَضَلهم ازدادت عدة درجات دينامومترية

ثم انهُ امتحن الامر بالآلة المسماة بالارغوغراف وهي آلة يُمتحَن بها مقدار بقآء القوة على العمل فعرض اناساً على هذه الآلة فوجد ان قوتهم

تفرغ عند الوصول الى ٤٧ حركة ثم اعاد اختبارهم بعد يومين من تعاطي الحامض التمليك فبلغوا ٩٤ حركة اي ضعفي الحركات الاولى قبل ان يدلّ الارغوغراف على ظهور التعب فيهم

وقد عمد الدكتور هوشار الى اختبار تجارب الدكتور كليمان في نفسهِ فثبت لهُ كل ما ذكرهُ من النتائج اذ وجد ان القوة العضلية تزداد زيادةً سريعة من اول الشروع في اخذ الحامض المذكور فانهُ بعد ان كانت قوتهُ قبل استعمالهِ لا تتعدى ٩ كيلغرامترات (اي رفع ٩ كيلغرامات الى مسافة متر) لم يصل الى اليوم الخامس حتى امكن ان يبلغ ٢٠ كيلغرامتراً فما فوق . اهـ

نَفَق شرقي قديم

عثرنا في احدى المجلاّت العلمية على الفصل الآتي فاحببنا ان نطرف بهِ قرّاء الضياء لمكانهِ من الاهميّة التأريخية قالت

ورد في بعض التقاليد[1] ان حزقيّا احد ملوك بني اسرائيل الذي ملك من سنة ٧٢٧ الى سنة ٦٩٩ قبل الميلاد امر بحفر قناةٍ اجرى فيها الماء الى مدينة أورشليم واتخذ لهُ مصنعاً جمع الماء فيهِ ليستقي منهُ سكان المدينة . وجاء في نسخةٍ خطيّة من مؤلّف لسيراخ ما يؤيّد هذا التقليد مع الاشارة الى ان تلك القناة كانت ثقباً في الجبل وقد جاء في النسخة المذكورة ما

(١) كذا والصحيح انهُ ورد في التوراة نفسها كما يرى صريحاً في سفر الملوك الرابع (٢٠ : ٢٠) وقد اشير اليهِ في عدة مواضع اخر من الكتاب

معناهُ «ان حزقيا حصّن مدينتهُ وجلب اليها المآء بأن ثقب الصخر بآلاتٍ من الشَبَهان (البرونز) وابتنى للمآء حوضاً يجتمع فيهِ» . وفي رأي كاتب الفصل ان ذلك الحوض هو بركة سلوام الوارد ذكرها في الانجيل

قال وقد اكتُشِف سنة ١٨٩٠ قناةٌ او بقايا قناة مكشوفة كان يجرْيَ المآء فيها الى المدينة وهذه القناة انشئت ولا ريب قبل زمن حزقيا ولكن حزقيا عمد الى ما هو أضمن لحاجة المدينة ولا سيما في زمن الحصار فحفر للمآء نَفَقاً في جوف الارض . وقد اتفق سنة ١٨٨٠ ان غلماناً كانوا يستحمُّون في مآء القناة فعثروا على كتابة بالحرف العبراني القديم يستفاد منها الطريقة التي جروا عليها اذ ذاك في خرق الجبل وقد نُقِلت هذه الكتابة (لعل المراد الصخر المنقوشة فيهِ) الى دار الآثار بالآستانة وهي هنالك الى يومنا هذا وترجمتها بالحرف الواحد « قد بلغ الحفر تمامهُ . وحين لم يكن مِعوَل الواحد يقع على مِعوَل الآخر وقد بقي بينهما ثلاث اذرع كان يُسمَع صوت الواحد اذا نادى الآخر من صدع الصخر وفي اليوم الذي تمَّ فيهِ الحفر تلاقى الحفارون معولاً الى معول . وكان سَمْك الصخر فوق رؤوس الحفارين ١٠٠ ذراع وقد جرت المياه الى الحوض على مسافة ٢٠٠ ذراع » اه ويؤخذ من فحوى هذا الوصف ان الحفر ابتُدِئ من طرَفي النفَق في آنٍ واحد فكان كل فريقٍ يحفر من ناحيتهِ حتى تلاقيا في الوسط وعلى ذلك تدلّ آثار الحفر الباقية في جدران النفق لان وقع المعاول في النصف الواحد منهُ عكس وقعها في النصف الآخر وهو الذي يوجب العجب من مهندسي ذلك العصر كيف امكنهم أن يحرروا اتجاه الخطين على مثل هذه

المسافة حتى يتلاقيا في وسطها من غير ان يشذ احدهما عن الآخر . بل هنالك ما هو أعجب وهو أن خط الحفر ليس على اتجاه واحد بل كثيراً ما يحرف عن الاستقامة . وقد شوهد في عدة مواضع انهم كانوا بعد ان يأخذوا في الحفر الى ناحية يتركونهُ ويرجعون مسافةً الى الوراء فيأخذون في ناحيةٍ اخرى مما يدل على انهم تنبهوا الى خطاءٍ في الاتجاه فعدلوا عنهُ. ولا يُنكَر انهم في آخر الامر اهتدى بعضهم الى مكان بعضٍ بالصوت ولكن ذلك لم يكن الاّ بعد أن لم يبقَ بين الفريقين الاّ مسافة ثلاث أذرع من الصخر

اما سعة هذا النفق فتختلف من ٦٠ سنتيمتراً الى ٩٠ وارتفاعهُ يبلغ ٣ امتار في جهة الطرف الجنوبي ومتراً و ٨٠ سنتيمتراً في جهة الشمالي واحياناً يكون دون ٦٠ سنتيمتراً ولعل ذلك ناشئٌ عن تفاوت حالة الصخر صلابةً وليناً . واما ارض النفق فمحرَّرة من اولها الى آخرها على مؤازاة الافق وهو مما لا يُستغرَب بالقياس الى مهارة اولئك المهندسين . انتهى

اسئلة واجوبتها

سان باولو (البرازيل) - ذكرتم في الجزء الثامن من ضياء السنة الماضية جواباً على سؤالي ان الشرائع المصرية تجيز تملك الاجنبي كالوطني بلا فرق فهل أُحدِث هذا النظام في عهد الاحتلال ام كان كذلك من قبل اذ المعروف ان مصر معدودة في جملة الولايات العثمانية ونظام الدولة العثمانية لا يجيز تملك الاجنبي ولذلك لما أراد الاميركان مثلاً شراء ارض لبناء المدرسة

الكاية في بيروت سُجّلت الارض اولاً باسم رجلٍ عثماني ثم استأجرها الاميركان منهُ والامثلة من هذا القبيل كثيرة فارجو الجواب عن هذه المسئلة بالايضاح ولكم الفضل انطونيوس يافث

الجواب — ترون في هذا الجزء مقالة في معنى سؤالكم من قلم حضرة الاصوليّ الفاضل ابراهيم افندي الجمّال من جلة المحامين في هذه العاصمةِ وفيها البيان الشافي لما ترومون الوقوف عليهِ

مصر — قرأت في احدى جرائدنا الكبرى مقالةً بامضآء «حقوقي» ورد في جملتها «ان المدارس الجامعة في أوربا كانت تطلق عند الغربيين في القرون الوسطى على معهدٍ لدراسة الدين وانها سميت بالجامعة لانها تجمع في طيها طلبة اللاهوت على اختلاف مراتبهم في العلم ولم تكن كالجامعات الحديثة تحتوي على فنون عالية كالطب والفلك والطبيعيات فهل لذلك من صحة (م • م)

الجواب — ذكر في مُعجَم بولياي ما محصَّلهُ انأول جامعةٍ أُنشِئت في اوربا هي جامعة باريز القديمة وكان انشآؤها سنة ١٢٠٠ للميلاد بأمر الملك فيليب اوغُسط وعلى مثالها انشئت بقية الجامعات في المالك الاوربية . قال وانما سميت بالجامعة لانها كانت تجمع عامّة المدرّسين والدارسين من أي شعبٍ كانوا ولم تكن تشتمل في اول امرها الا على مدرستين وهما مدرسة اللاهوت ومدرسة الفنون وهي تتناول الآداب والعلوم وبعد ذلك أضافوا اليها مدرستين اخريين وهما مدرسة الحقوق

ومدرسة الطب . انتهى المقصود منهُ

ريوجنايرو — ارى في كلام بعض الكتاب مثل قول القائل زوجة واولاد فلان واظن ان هذا التركيب افرنجي والاصح زوجة فلان واولادهُ فما قولكم في ذلك　　يوسف ناصيف ظاهر

الجواب — هذا التركيب صحيح وقد سُمِع مثلهُ في كلام العرب ومنهُ قول الشاعر

يا من رأى عارضاً أُسَرّ بهِ　　بين ذراعَيْ وجبهـة الاسدِ

وهو على تقدير محذوف اي بين ذراعي الاسد وجبهة الاسد ثم استُغني عن الاسد الاول بدلالة الثاني عليهِ . وكذا يقال فيما اشبههُ

القاهرة — جآء في كتاب الدروس النحوية لتلامذة المدارس الاميرية في تعريف الفعل ما نصُّهُ « الفعل ما دلّ على معنى مستقلّ بالفهم والزمن جزءٌ منهُ » وقد اشكل هذا التعريف عليَّ وعلى كثير من المدرّسين ولم يتجه لنا كيف يكون الزمن جزءًا من معنى الفعل فهل لكم ان توضحوا لنا هذا الاشكال ولكم الفضل　　الياس راجي

الجواب — هذا من التعاريف التي لم نجدها لاحد من الصرفيين فانهم كلهم يعرّفون الفعل بانهُ ما دلّ على معنى في نفسهِ مقترن بالزمان او باحد الازمنة الثلاثة . وبيانهُ ان قولنا ذهب مثلاً يدل على معنى الذهاب مقارناً للزمان الماضي وقولنا يذهب يدل على المعنى المذكور مقارناً لزمان الحال او الاستقبال . فكلٌّ من المثالين يدل على الحَدَث وعلى الزمان ودلالتهُ

على الاول بمادّتهِ اي بأحرف مصدرهِ وعلى الثاني بصيغتهِ وحينئذٍ فمدلول الفعل شيئان كلٌّ منهما غير الآخر لا شيءٌ واحد مركب من جزءين هما الحَدَث والزمان والالزم ان يكون مدلول المصدر جزء معنًى لامعنًى لانهُ يدل على الحدث دون الزمان . وذلك فضلاً عن ان الزمان انما هو ظرفٌ للحدث الواقع فيهِ والظرف لا يكون جزءًا من المظروف كما لا يخفى على ذوي البصائر السليمة

القاهرة — نرجو الافادة عن كلمة « تَفزّع » فان كثيراً من اهل الادب ينكرونها وفي رأينا ان الاشتقاق يجيزها فما قولكم في ذلك

احمد علي ضيف بدار العلوم

الجواب ـ هذه من الالفاظ التي اغفل اللغويون ذكرها ولكنها شائعة في استعمال الادبآء وممن استعملها ابو الطيب المتنبي في قولهِ

يتفزع الجبّار من بغتاتهِ فيظلّ في خلواتهِ متكفنا

بل قد وردت في كتب اللغة نفسها لكن في غير موضعها فقد جآء في الصحاح في مادّة (روع) ما نصُّهُ « ورُعتُ فلاناً وروّعتُهُ فارتاع اي افزعتهُ ففزِع وتَروَّع اي تفزّع » ومثل ذلك ايضاً جآء في الموضع نفسهِ في القاموس ولسان العرب وهو مما يدل على انهم اهملوها في مكانها سهواً . وكم من مثل ذلك في كتبهم حتى لقد مرّ بنا في ربع القاموس فقط نحو ٦٠٠ لفظة لم يجرِ لها ذكراً في اماكنها ولنا في هذا المعنى كلامٌ سنفرد لهُ فصلاً مخصوصاً في هذه المجلة ان شآء الله

فكاهات

الكولونيل جيرار (١)

— ٩ —

ولما رأى جيرار اصغآء سامعيهِ زاد عجبهُ وأبرقت اسرّتهُ فقال

لم يكن الامبراطور يحتاج الى خدمة مهمة او يعرض لهُ اجتياز خطر جسيم الا كان اسمي اول شيءٍ يتذكرهُ ولم يكن لينساهُ قط الاّ بعض الاحيان عند توزيع الرتب والاوسمة .. على انني لا اؤاخذهُ في ذلك وقد كنتُ كولونيلاً في الثامنة والعشرين من عمري وقائد فرقة في الحادية والثلاثين ولو دامت الحرب سنتين اخريين لكنت اخذت في يدي عصا المارشالية و بينها و بين العرش خطوة واحدة غير ان واترلو قضت على تلك الآمال ولم تؤيد احلامي كما احببت ولكنها ابقت لاسمي ذكراً في التاريخ لا يمحوهُ زوال الدول . وما أقصهُ عليكم الآن قد كان الدرجة الاولى في سلم ارتقائي والسبب الذي اوجد رابطة الوداد بين الامبراطور و بيني وقد كان الى الآن من الاسرار التي اوصاني الامبراطور ان لا أبوح بها مادام في قيد الحياة اما الآن وقد انتقل الى عالم آخر فانا في حلٍّ من قسمي فأقول

لا يخفى عليكم انني في مدة معاهدة تلسيت كنت لا ازال ملازماً في فرقة الهوسار العاشرة وكنت لا أملك قوت ليلة غير ان هيأتي ونظافة ملابسي خيّلت فيَّ هيئة العظمة واليسار ولا سيما بعد الشهرة التي نلتها في خوض المعامع فلم يبقَ الاّ ان تسنح لي فرصة سعيدة تفاجئني فاغتنمها لاصبح في عداد الابطال المحيطين بالامبراطور واليكم حديث تلك الفرصة التي منحتني ذلك الشرف العظيم

(١) بقلم نسيب افندي المشعلاني

لما رجع نابوليون الى باريس بعد صلح سنة ١٨٠٧ انطلق بيلاطهِ والامبراطورة الى فونتنبلو وهو في أوج عزهِ ومنتهى سطوتهِ لانهُ كان في ثلاث معارك قد أخضع النمسا وسحق بروسيا وارجع روسيا الى ورآء نهر نيمن . اما انكلترا فكانت تهرّ في سجنها ورآء المانش . ولو اننا تمكنا حينئذٍ من تقرير سلم مستمرّ لكانت فرنسا تمتعت بسلطة لم تحصل عليها دولة اخرى من عهد الرومانيين . اما أنا فكنت في ذلك الحين مشغولاً عن الاهتمام السياسي بالفتيات اللواتي سرّهنَّ رجوع العساكر بعد غيابهم الطويل ولم يكن لجيرار الوقت الكافي لرد التحيات التي كنَّ يحيينهُ بها وكفا كم برهاناً على افتتانهنَّ بي انني الآن وقد بلغت الستين ٠٠٠٠ ولكن ما لي ولوصف ما لا يجهلهُ احد . وكانت فرقتنا معسكرة في فونتنبلو ايضاً بقيادة الكولونيل لاسال والبلدة صغيرة يكتنفها من جميع جهاتها الغابة المشهورة وكانت دائماً مكتظة بالدوقات والامرآء والقواد والشرفآء وهم يجتمعون حول ذاك الرجل الصغير وأكثرهم من الالمان وكان بعضهم ممن ساعدونا في الحرب الاخيرة فاتوا يطلبون المكافأة و بعضهم ممن قاومونا فاحضرناهم لينالوا الجزآء . اما نابوليون فكان يسير بينهم بوجههِ الاصفر الصامت وينفذ فيهم اوامرهُ الماضية كانهُ القضآء المبرم بعد ان كان رجلاً بسيطاً ورآء مدفعهِ وقد رفعناهُ بسيوفنا وحرابنا الى ذروة العرش ولذلك كان لنا عندهُ المقام الرفيع لعلمهِ باننا مصدر قوتهِ وكنا نقرّ انهُ اعظم قائدٍ في العالم كما كان يقر اننا اعظم رجالٍ يمكنهُ ان يقودهم

وجلست يوماً مع رصفآئي الضباط في نادي المعسكر فانهمكنا في المقامرة والشرب والتأنق اقتدآء بزعيمنا لاسال معتقدين ان صفاتهِ هذه كانت سبباً لترقيتهِ مع ان الامر بالعكس ولم يصل الى ما هو فيهِ الا لما رآهُ فيهِ الامبراطور من الجرأة والكفاية . واذا بلاسال نفسهِ قد دخل حتى حاذاني فضرب كتفي بيدهِ اللطيفة وقال يا جيرار ان الامبراطور يأمرك ان تذهب اليهِ في الساعة الرابعة . فلما سمعت ذلك ملكتني الحيرة حتى شعرت ان جدران الغرفة تدور بي وقلت اصحيح ذلك يا مولاي . ان الامبراطور لا يعرفني فما عساهُ ان يريد مني . فتبسم لاسال وقال

لا اعلم ولعلهُ في احتياج الى سيف صقيل وذراع متينة وعسى ان يكون استدعاؤك هذا سبباً لترقيتك فاذهب يا بنيَّ بلَّغك الله مرامك . ولا تنسَ اننا في الساعة الثانية الآن فسأذهب واعود اليك لنكون امام غرفة الامبراطور في الساعة الرابعة حسب امرهِ . ولما ذهب لاسال بقيت كالحائر وانا اناجي افكاري لعلي اعرف قصد الامبراطور من طلبي فكنت تارةً اظنهُ يدعوني ليكافئني على ما فعلتهُ في معركة استرلتز وطوراً يخيل لي ان المبارزات العديدة التي كنت اقوم بها في اكثر الايام قد بلغت مسامعهُ وسيعاقبني عليها ومضى عليَّ الوقت وأنا اترجح بين كفَّتي الخوف والامل

وقبل حلول الموعد بنصف ساعة دخل عليَّ لاسال وفي صحبتهِ رجل اعرج بثوبهِ الاسود . ومع ان رجال الجندية لا يعرفون الملكيين لعدم اختلاطهم بهم فانني عرفت الرجل حالاً لشهرتهِ وهو تاليراند الذي كان الامبراطور نفسهُ يهتم باسمهِ . وعرّفني لاسال بهِ فحييتهُ ونظر اليَّ بعينين صغيرتين براقتين اخترق نظرهما الحاد صدري كحربة قاطعة . ثم نظر الى لاسال وقال هل أطلعت الملازم جيرار على الشؤون التي اوجبت استدعاءهُ . فقال لا . ثم التفت لاسال اليَّ وقال انني كنت اليوم صباحاً في غرفة الامبراطور الخصوصية فاحضروا اليهِ رسالةً فضَّها وما كاد يتم قراءتها حتى بدت عليهِ علامات الدهش وسقطت الرسالة من يدهِ الى الارض . فالتقطتها لاناولهُ اياها فرأيتهُ قد جمد نظرهُ الى الحائط كمن رأى شبحاً مخيفاً ثم سمعتهُ يردّد بصوت أجش هذه الكلمات « اخوية اجاشيو … اخوية اجاشيو » ثم اخذ الرسالة من يدي واعاد قراءتها بتأنٍّ وانطرح على كرسيهِ فلبث نحو نصف ساعة كانهُ في غيبوبة . وكنت لا ازال واقفاً امامهُ لا ادري ماذا يجب ان افعل ثم رأيتهُ قد عاد الى رشدهِ فنظر اليَّ وقال اظن ان فرقتك لا تخلو ولو من ضابطٍ واحد شجاع يعوَّل عليهِ . قلت كل واحد من فرقتي يصدق عليهِ هذا الوصف يامولاي . فقال ولكنك اذا خُيّرت في انتقاء واحد منهم يكون اشجعهم واسرعهم عملاً ولا يكون من الذين يفتكرون كثيراً فمن تختار . قلت يوجد بينهم فتىً قلبهُ من حجر وكل نائقهِ في شاربيهِ ومناخسهِ وهواهُ منقسم بين النساء والخيل . فقال

الامبراطور هذا هو الرجل الذي احتاج اليهِ فأحضرهُ الى غرفتي هذا اليوم في الساعة الرابعة . فحييتُ وخرجت وجئت توًّا اليك يا جيرار لتقتي بك انك لا تشين شرف فرقة الهوسار العاشرة . ولا بد ان هذا الاطرآء ظهرت نتيجتهُ على وجهي بدون قصد مني لانني رأيت لاسال يقهقه ضاحكاً وتاليراند يبتسم

ثم نظر اليَّ تاليراند وقال لا اظنك تجهل يا مسيو جيرار ان امامك مهمةً عظيمة وان كنا لا نعرف ما هي غير انهُ لما كانت سلامة فرنسا وامبراطورها مطلوبة منا وعهدتها ملقاة على عواتقنا فسنتنظرك هنا لتعلمنا بما يريدهُ الامبراطور ونحن نشير عليك ماذا يجب ان تفعل فاذهب ولا تتأخر فقد ازف الوقت ولا شيء يسوء الامبراطور مثل عدم المحافظة على المواعيد

وما صدّقت ان أُذِن لي في الانصراف حتى توجهت الى القصر ولم يكن يبعد عنا اكثر من مئة خطوة فبلغتهُ ودخلت الدار الخارجية فوجدت عدداً غفيراً من الكبار ينتظرون مقابلة الامبراطور واكثرهم من نبلآء الالمان بعضهم ينتظر الترقية والبعض يتوقع العقاب . ورأيت امام غرفة الامبراطور صديقي الضابط دبروك وهو الذي قادني الى غرفة بونابرت الخصوصية . وكنت قد رايت الامبراطور اكثر من مئة مرة في ساحة القتال ولكنني لم اقف امامهُ قط وجهاً لوجه ولو لم اكن اعرفهُ سابقاً لرأيتهُ كواحدٍ من اصاغر الناس الا ان لعينيهِ نظرةً حادّة غريبة ترتعد لها فرائص اشجع الفرسان . ورآني الامبراطور فاشار اليَّ ان انتظرهُ حذآء الباب وكان كاتبهُ دي منيفال يكتب ما يمليهِ عليه فلما انتهى صرفهُ وخلونا وحدنا في الغرفة . فاقترب مني وفحصني بنظرهِ الخارق وكنت قد وضعت يدي اليسرى على مقبض سيفي واليمنى على رأسي محيياً . ولا شك ان هيئتي اوجبت استحسانهُ فانهُ تبسم ثم ضرب باصابعهِ كتفي وقال بلغني من الكولونيل لاسال انك ضابط يعتمد عليهِ في قضآء مهمات الدولة . فهممت ان اجيبهُ ولكنني تذكرت ما قالهُ لي لاسال من وجوب بقآئي صامتاً بين يديهِ فسكتُّ وكانهُ شعر بما يخالج صدري فعاد الى حديثهِ قائلاً انك يا مسيو جيرار الرجل الذي اريدهُ الآن غير انهُ قد بلغ مسامعي ما تفعلهُ في

المبارزة وانك لا ترى ضابطاً حتى توقع بينك و بينهُ مشكلاً ثم تدعوهُ الى البراز وانك تخرج دائماً منتصراً . ثم غير لهجتهُ وقال اعلم يا هذا انني اودّ ان تتعلم عساكري مقاتلة الاعداء لا مقاتلة بعضها بعضاً فاذا بلغني بعد الآن مثل هذه الاخبار عنك سحقتك بين اصابعي هكذا . وعرك ابهامهُ وسبابتهُ امام وجهي فشعرت ان الارض تفتح فاها لابتلاعي . اما هو فرجع الى مائدتهِ فشرب قدحاً من القهوة كان هناك ثم عاد اليَّ وقد تساير الغضب عن وجههِ فتبسم وقال انني في احتياج اليك يامسيو جيرار ولكنني اوصيك ان تكتم ما سأقولهُ لك عن كل بشر وان لا يتعدى صدرك ما بقيتُ حيًّا فأقسم لي بشرف الجندية انك لن تبوح بما سأطلعك عليهِ ففعلت . ثم قال لي انني اطلب منك الطاعة العمياء ليس الا واياك ان تفتكر في غير ذلك لانني محتاج الليلة الى سيفك لا الى ذكآئك فهل تعرف البقعة الكائنة في وسط الغابة . قلت نعم يامولاي . قال وهل تعرف شجرة الزان الكبيرة التي في وسطها. قلت نعم يا مولاي . قال حسنٌ فقابلني هناك في هذه الليلة عند الساعة العاشرة حيث ندخل الغاب معاً وخذ معك سيفك ولا تأخذ غدارتك واذكر انهُ لا ينبغي ان تكلمني البتة ولا اكلمك بل نتقدم معاً الى داخل الغابة صامتين الى ان نرى رجلاً او اثنين تحت احدى الاشجار فنقابلهما معاً فاذا اشرت اليك ان تدافع عني فليكن حسامك مستعدًّا اما اذا تكلمت معهما فانتظر وراقب ما يكون. واذا بدأتَ بالدفاع عني فاياك ان ينجو احدهما وانا اساعدك . قلت سمعاً وطاعةً يا مولاي وحسامي لا يقصر عن قتل الاثنين ولكن الا يكون الافضل ان يكون غيرك مساعداً لي حتى لا تعرض شخص جلالتك للخطر . قال انني كنت جنديًّا مدفعيًّا قبل ان اصير امبراطوراً فلا يصعب عليَّ امتشاق الحسام فافعل كما امرتك والآن فانصرف وكن على استعداد . فانحنيت وهممت بالخروج ثم خطر لي امر فعدت الى امام جلالتهِ وقلت قد افتكرت يا مولاي . . . . فقاطعني بحدّة قائلاً دعني من فكرك وهل تظن انني استدعيتك لتعطيني افكارك . قد قلت لك ما يجب ان تفعل وكفى

اما انا فما صدقت ان خرجت من لدنهُ فجعلت اعدو الى ان بلغت غرفتي

كالولد الصغير الذي يسرّهُ ان ينجو من انتهار معلمهِ القاسي . ورأيت لاسال وتاليراند في انتظاري فنهضا لمقابلتي وقالا معاً ما هي اخبارك يا جيرار . فقلت لا شيءَ . فقال لاسال ألم يقابلك الامبراطور . قلت بلى . فقال تاليراند وماذا قال لك . قلت لا استطيع ان ابوح بما جرى لانني اقسمتُ لهُ على الكتمان . فقال هازئاً ما شآء الله الا تعلم ان ما تقولهُ لنا لا يتجاوز حائط هذه الغرفة وان الامبراطور لا يخفي عني شيئاً . قلت ان كان كذلك فلا اكثر من ان تتكرم بالذهاب اليهِ وتسألهُ عما تروم معرفتهُ فليست المسافة ببعيدة . فكشر تاليراند حتى بانت نواجذهُ وقال بغيظ يظهر ان المسيو جيرار لا يزال صغيراً فينتفخ لاقل مظهرٍ يراهُ ولكنهُ سيعلم فيما بعد ان الجندي لا يرفض طلب رؤسآئهِ بانفةٍ كهذه

وأردت ان اجاوبهُ فقطع عليَّ لاسال قائلاً لو علمتُ انهُ أقسم على الكتمان لما كنت سألتهُ ولست اشك يا مسيو تاليراند انهُ لو اجابك لاحتقرتهُ انت ولوبختهُ انا وطردتهُ حالاً من الفرقة العاشرة لانهُ لا يعود يستحق البقآء فيها . فنظر اليهِ تاليراند نظرة استهجان وقال ولكني اراني مضطرًّا في مركزي الحالي المطلوب مني فيهِ المحافظة على سلامة فرنسا وامبراطورها ان اعلم كل شيءٍ ولو خالفت اوامر جلالتهِ الوقتية وسأعرف ما أريد معرفتهُ من محل آخر . ولما قال هذا حيَّا وخرج ناظراً اليَّ نظرة الانتقام . وظهر لي ان لاسال لا يريد معاندة هذا الوزير لانهُ ما عتم ان تبعهُ فرأيتهما سائرين معاً ولاسال يتكلم بالحاح كانهُ يوضح لهُ قصدهُ لكي لا يحقد عليهِ

اما أنا فقد كان اوصاني الامبراطور ان لا افتكر فاجتهدت ان اطيعهُ بتسلية نفسي فاخذت ورق اللعب من جيبي وجعلت اصفّهُ على المائدة ولكنني لم أعد اميز بين اللون الواحد والآخر فطرحتهُ يائساً ثم عمدت الى سيفي وجعلت امرّن نفسي عليهِ بضرب الهوآء حتى كلت يدي . ولم يكن كل ذلك ليبطل حركة افكاري فعلمت انني لا استطيع اماتتها كما يريد جلالتهُ فدخلت غرفتي واطلقت لها العنان فكانت تريني تارةً فشلي وكدر الامبراطور مني وطوراً نجاحي وبنآء اساس مستقبلي فقضيت تلك الحصة من الوقت على أحر من الجمر حتى دنت الساعة العاشرة وهي

الموعد المضروب فارتديت دثاري العسكري وتقلدت فوقهُ سيفي ثم غيرت حذآئي الثقيل بأخفّ منهُ لأكون اسهل حركةً وانسللت من غرفتي قاصداً الغابة . واذ ذاك سُرّي عني لانهُ كان من ظبعي ان أشعر بالراحة حين يدنو الخطر . ومررت من امام نادينا فرأيت رفاقي يشربون ويلعبون غير عالمين بما يفعلهُ رفيقهم وناداني احدهم فتظاهرت بالصمم واسرعت في المسير فسمعتهُ يشتمني . وكنت اودّ ان ارجع اليهِ وأريهُ شيئاً من حسامي غير انني خشيت ضياع الوقت فمضيت في سبيلي

ولما بلغت أول الغابة برز القمر من خلال الاشجار فلم أجد صعوبة في الوصول الى الشجرة المعهودة . فلما بلغتها رأيت ان الامبراطور قد سبقني اليها وهو يتمشى ذهاباً واياباً وقد حنى رأسهُ على صدرهِ تحت قبعتهِ المثلثة وغطى جسمهُ بدثارهِ الرمادي فخفت أن يلومني لتأخري عنهُ ووصولهِ قبلي ولكنني قبل أن اصل اليهِ سمعنا ساعة كنيسة فونتنبلو تدق ضرباتها العشر . وكنت لم أنسَ ما أوصاني بهِ من وجوب الصمت فلما صرت على مسافة اربع خطوات منهُ وقفت وحيَّيت فنظر اليّ ولم يجب ثم حوَّل ظهرهُ ومشى الى داخل الغابة فتبعتهُ محافظاً على المسافة التي بيننا وكان يتلفت يميناً وشمالاً كأنهُ يخاف أن يرانا أحد . وما زلنا سائرين مسافة ميل فعلمت اننا نقصد شجرة تعرف بقبر رئيس الدير وقد اشتهر عنها انها مألف الجان والارواح ولكنني لم اعتقد بهذه الترهات وسرني ان الامبراطور نفسهُ من معتقدي ايضاً . ولما بلغنا الشجرة المذكورة رأينا على نور القمر رجلين بانتظارنا وكانا قد لصقا بجذع الشجرة كأنهما يتحاميان ان يراهما أحد . فلما صرنا بجانبهما انفصلا عنها واقتربا لمقابلتنا فنظر اليّ الامبراطور وقد خفف سيرهُ الى أن حاذيتهُ . ودققت نظري في القادمين فرأيت احدهما طويل القامة جدًّا عريض المنكبين ضخم الجسم والآخر قصير القامة غليظاً يكاد طولهُ يساوي عرضهُ وكانا قد التفا بأردية سوداء وعلى رأس كلٍّ منهما قبعة صغيرة تغطي جبهتهُ الى قرب عينيهِ وهما تبرقان من تحتها كالنار المشتعلة . وكانا يسيران باحتراس و باقدام ثابتة الى أن وقفا على بعد نحو خمس خطواتٍ منا فكان منظرنا مرهباً كأننا أسدان امام نمرين .ولاحظت

ان اطولهما قَلِق عصبي المزاج يرتعش جسمهُ غيظاً وقد زاد تنفسهُ وانفتح انفهُ وسمعتهُ يلهث كالكلب العائد من الصيد . ثم اعطى احدهما علامة بصفير خفيف فرأيت اطولهما قد حنى ظهرهُ وركبتيهِ كمن يتحفز للوثوب وفي أسرع من لمح البصر كنت قد صرت امامهُ والسيف مصلت في يدي . وفي الدقيقة نفسها وثب اقصرهما فصار امام الامبراطور و بيدهِ خنجرٌ أغمدهُ الى مقبضهِ في صدرهِ . فآه ما أشدّ هول تلك الساعة واني لاعجب من عدم سقوطي ميتاً عند ما رأيت الامبراطور المحبوب يتهادى وقد أخذ الدم يتدفق من صدرهِ ثم تنهد بحشرجةٍ وسقط الى الارض . اما القاتل فترك خنجرهُ في صدر فريستهِ ورفع ذراعيهِ الى العلاء ضاحكاً مسروراً . فاصابني جنون دفعني عليهِ اندفاع الصاعقة فضربتهُ بمقبض سيفي على صدرهِ ضربةً شديدة كسرت لهُ ضلعين والقتهُ على بعد ست خطوات مني ثم عطفت على رفيقهِ وقد استولى عليَّ حب الانتقام والتعطش لسفك الدمآء مما لم أشعر بمثلهِ في حياتي . ولكنني ما كدت التفت اليهِ حتى رأيت خنجراً لامعاً قد مرَّ امام عينيَّ ويداً أمسكت بعنقي . فدفعتهُ عني بعنف ورفعت سيفي لاضربهُ وقبل أن أفعل تملص مني واطلق ساقيهِ للريح فكان يعدو بأسرع من عدو النعام . ولا تظنوا ان جيرار كان يتركهُ يفرّ على هذه الصورة غير انني علمت ان خنجر رفيقهِ كان قد فعل فعلهُ فوقفت لمحةً امام جثة الامبراطور وأخذت يدهُ الباردة بيدي وناديتهُ بتألم يا مولاي يا مولاي فلم اسمع جواباً بل رأيت بقعة الدم تتسع على الارض بجانبهِ فتحققت انهُ لم يبقَ أقل أمل . وللحال وثبت على قدميَّ فألقيت عني ردآئي الثقيل وجعلت اعدو ورآء الفارّ وقد ظهر لي صواب فكري في تغيير حذآئي الثقيل . وكأن اللعين ادهشهُ الرعب او ثبَّطهُ ردآؤهُ عن الاسراع فرأيت انني سأدركهُ لا محالة . ولو بقي عقلهُ معهُ لاختفى في بعض ادغال الغابة وتعسر عليَّ الاهتدآء اليهِ غير ان الخوف افقدهُ رشادهُ فسار في طريق ينيرها القمر وانا لا انفك عن مطاردتهِ حتى بلغ شفير هاوية تحتها النهر فألقى بنفسهِ واختفى عن نظري . ولما صرت في نفس المكان خطر لي انهُ طرح نفسهُ الى النهر تخلصاً مني

غير ان سمعي الحاد ارشدني اليهِ . وكان عند منتصف الهوة غرفة قد بناها النوتية لوضع أدواتهم فيها فدخلها وقد ظنّ انهُ يأمن اتباعي اياهُ وان ظلمة الغرفة تخيفني فلا اتبعهُ . ولم يدرِ ان الدم الذي كان يجري حينئذٍ في عروقي كان يقودني الى حيث ترتجف الابطال فوثبت ورآءهُ ودخلت الغرفة وسيفي مصلت بيدي فجعلت اضرب بهِ في تلك الظلمة . ويظهر ان ضربتي الاولى كانت القاضية لانني سمعت سقوط جسمهِ الى الارض ولكنني لم اكتفِ فطعنتهُ طعناتٍ عديدة تشفياً حتى بطلت حركتهُ . فاوقدت ثقاباً ونظرت اليهِ فوجدتهُ قد فاضت روحهُ فوثبت الى الخارج وجعلت اعدو الى البقعة التي تركت فيها جثة الامبراطور . وقبل ان أبلغها عاد امام مخيلتي ما جرى لنا في تلك الساعة فوقفت اتأمل ثم رأيت حجراً فجلست عليهِ واسندت رأسي بيديّ وجعلت انتحب لا عن وجلٍ او تعب ولكني تفكرت فيما جرى وما سيكون فان الامبراطور قد فوّض اليّ حراستهُ وها هو ميت على غير بعدٍ مني . ولا انكر انني قمت باجرآء ما أمر وقد انتقمت لهُ ولكن ماذا يفيد كل ذلك وكيف أقرر هذه الحقيقة ومن يصدقني أوَلا يظنني البعض شريكاً للقتلة . واذ ذاك تمثل لي مركزي الحرج وعلمت انني اصبحت تعِساً شقيًّا وقد فقدت شرفي وكل آمالي العسكرية وآمال والدتي ايضاً . فتبسمت تبسم اليائس وأخذت اسأل نفسي هل اذهب الى فونتنبلو فاخبرهم بما جرى او اخترق صدري بسيفي فنموت جميعاً ونترك الناس يقولون ما شآءوا متى وجدوا جثثنا . وانني لكذلك واذا بحركة استدعت انتباهي فنظرت واذا بالامبراطور نفسهِ امامي بقبعتهِ وردآئهِ الرمادي وقد انار القمر وجههُ فرأيتهُ مصفرًّا كئيباً وقد ضمّ يديهِ ورآء ظهرهِ . فدهشت وجحظت عيناي وكدت افقد صوابي ثم رأيتهُ تبسم فعلمت انهُ ليس شبحاً بل شخصاً حقيقيًّا فوثبت على قدميّ ورفعت يدي مسلماً السلام العسكري . فقال يظهر لي انك قد قتلت احد الرجلين لانني رأيت جثتهُ بالقرب من هذا المكان . قلت نعم يا مولاي . قال وهل نجا الآخر . قلت كلا فقد قتلتهُ ايضاً . فرأيت دلائل السرور قد اشرقت في وجههِ فتقدم اليّ متبسماً وقال ماذا تقول هل قتلت

الآخر ايضاً . قلت نعم يا مولاي فالجثة الاولى هنا والثانية في غرفة العملة بجانب النهر . فصمت هنيهةً كانهُ يناجي نفسهُ ثم قال اذاً قد انقضى امر اخوية اجاشيو وخلصت من ظلها . ثم عاد اليَّ فوضع يدهُ على كتفي وقال وقد رأى حيرتي اشكرك يا مسيو جيرار فلا تخف ولا تظن انني خيال فانني لم امت وتعالَ معي اطلعك على الحقيقة . ثم سار امامي فتبعتهُ الى البقعة التي قابلنا فيها الرجلين وكانت الجثتان لا تزالان على الارض يحرسهما رستم ومصطفى مملوكا بوناپرت . فتقدم ناپوليون الى الجثة التي كنت اظنها اياهُ ورفع قبعتها فقال هذه جثة احد خدمي الامناء . اجل هذا دي جودين الذي بذل نفسهُ لاجلي لانهُ يشبهني في الجسم والقامة والصورة . فلما تحققت ذلك كدت اطير فرحاً حتى اوشكت ان اضمهُ الى صدري واقبلهُ وكانهُ عرف قصدي فرجع خطوةً الى الوراء وقال هل اصابك شيء من الضرر . قلت كلا يا مولاي ولكنني لو تأخرتَ عليَّ دقيقةً واحدة لانتحرت . فقال قد سرني فعلك وقد رأيت كل ما فعلتهُ لانني كنت مختفياً الى جانب فرأيت سقوط جودين الذي يمثلني فهلمَّ بنا الى القصر . ثم القى بعض الاوامر على مملوكيهِ وسار اتبعهُ انا ولم أسر في حياتي كما سرت في ذلك الحين وقد نصبت قامتي ورفعت رأسي وفتلت شاربيَّ كما يليق بحراس الامبراطور وأمناء سرهِ . ورأى ذلك مني فقال اهذا شأن من يقوم بمهمة سرية يا جيرار وهل تريد ان يعلم الجميع ما قمت بفعلهِ الآن فأقلع عن هذه السخافة والا ارسلتك الى حيث يحني ظهرك العمل ويبيض عارضيك الغم . فسكتُّ لمعرفتي طبعهُ وتبعتهُ صامتاً حتى بلغنا القصر فدخل غرفتهُ وتبعتهُ اليها . ولا اشك ان الخفراء تعجبوا من لحاقي بهِ في مثل تلك الساعة. اما هو فانطرح على كرسيهِ الطويل وغرق في تأملاتهِ وبقيت واقفاً امامهُ حتى سئمت الانتظار فابديت حركةً نبهتهُ اليَّ فقال لا شك انك تستغرب ما حصل في هذه الليلة فاذا لم اخبرك السبب فلا بد ان يسوقك الاستغراب الى السؤال والفحص فلا يمضي يومان حتى ينتشر الخبر في جهات فرنسا ولذلك ارى الافضل ان اطلعك على المسألة ليزول استغرابك فتتمكن من حفظ هذا السر العميق فاسمع .

ان هذين الرجلين من كرسكا وانا اعرفهما منذ صباي وكنا جميعاً اعضآء جمعية واحدة تدعى اخوية اجاشيو لها قوانين سرية هائلة تجازي بالموت كل من يحيد عنها وقد كانت هذه الاخوية تليق بنا في ذلك الوقت ولم يكن فيها اصدق اخآء مني . اما الآن فقد تغيرت الاحوال فليس من مصلحتي ولا من مصلحة فرنسا ان اخضع لهذه الاخوية . وقد شآء ذانك الرجلان ان يتحققا انضمامي اليها فقتلتهما لانهما رئيسان اتيا من كرسكا وطلبا مواجهتي في ذلك المكان من الغابة وعلمت الغاية التي يرومانها لان الشركة لا تدعو احداً الى مواجهة سرية ويعود منها وانا لا اجهل ذلك فلو كنت مكاني يا جيرار ماذا كنت تفعل . قلت كنت آمر فرقة الهوسار ان تكتسح الغابة وتقبض عليهما حيثما وجدا . فتبسم هازًّا رأسهُ وقال اما انا فلم يوافقني القآء القبض عليهما حيَّين لان لسان القاتل اشد خطراً من ذراعهِ ولا اخفي عنك انني فضلت اجتناب الاشاعة التي لا بد ان تذيع بعد كلامهم ولهذا السبب امرتك ان لا تستصحب غدارتك ولهذا السبب ايضاً امرت رستم ومصطفى ان يخفيا الجثة ويخفيا ايضاً كل اثر يدل على ما حصل الليلة

وقد كان انهُ عند ما جآءتني دعوتهما ان الكولونيل لاسال كان في غرفتي ففوضت اليهِ انتخاب واحد من رجالهِ فوقع اختيارهُ عليك لانك شجاع وقد قمت بكل ما ارجوهُ منك . وقد اخبرتك بكل شيء فأنا مرتضٍ وانت مرتضٍ وعسى ان يكون ذلك كافياً لان تحفظ هذا السر حفظاً تامًّا وتصرفهُ عن مخيلتك كأنهُ لم يكن . قلت ثق يا مولاي اني أقوم بامر جلالتك . قال فما دمت انا حيًّا تبقى شفتاك مختومتين على هذا الامر . قلت اعدك بذلك يا مولاي وأنني أنسى كل ما جرى من هذه الدقيقة واخرج من هذه الغرفة الآن كما دخلت اليها في الساعة الرابعة بعد ظهر أمس . فتبسم وقال لا يمكن ان تخرج منها كما دخلتها فانك دخلت برتبة ملازم اول وستخرج منها برتبة قائد مئة ثم وضع يدهُ على كتفي وقال أتمنى لك ليلة سعيدة ونوماً هنيئاً يا حضرة القائد جيرار